الوجع الشاهد

حبيب صادق *

أمام ذلك المشهد الملتبس الذي يأخذك من أمره ضربٌ من الحيرة مؤرقٌ فلا تدري معه في أيِّ بابٍ من أبواب الإبداع المسرحي تجد له محلاً وأنت على شيء من الطمأنينة، فهل تلحقه بباب الفجائع أو باب المساخر أو تلحقه ببابٍ آخر يقع بين البابين...

أمام ذلك المشهد الملتبس الذي جرت مراسمُ استعراضه في حديقة البلاط الأميركي بكلّ احتفالية الأباطرة العظام وغطرستهم وهم عائدون، لتوّهم، من فتحٍ مُبينٍ أو نصرٍ مُؤزّر...

أمام ذلك المشهد الملتبس، يفقد المثقف العربي أو يكاد ما احتفظَ به من زاد التوازن الفكريّ والوجداني وما تبقّى لديه من معايير للقيم ومقاييس للحكام...

فمهما امتلك المثقّف العربي من وعي تاريخي وثروة معرفية، من قدرة على قراءة العلاقات السائدة في عصر الهيمنة الرأسمالية القاهرة على العالم بأسره، فإنّه (أي هذا المثقّف) يبقى مُرشّحاً للوقوعِ في مهاوي الحيرة المؤرقة حيال ذلك المشهد الغرائبي.

أنتَ، العربيَّ الأخيرَ، ملزمٌ بتصديق عينيك المفتوحتين على مصراعيهما. فتلك اليد التي مهرت بتوقيعها، ذات يوم بهيّ، ميثاقَ الثورة، فلسطين والحلم الجميل، تراها هي بالذات تهرول عجلى نحو مائدة «كمب دايفيد»؛ فتوقّع عليها قرارَ الإعدام بحق هذا الميثاق، ثمّ تراها ترفعُ من فورها إشارة النصر التقليدية مزهوّةً منتشيةً.

فلو كان ساداتُ فلسطين من يقترف هذا الفعل الآثم بحقها لهان عليها أمره، ولكن أنْ يقترفه «ناصرُها» فذاك أمر لا سبيل إلى إدراكه أو القبول به، اللّهم إلا إذا كانت عدوى قتل الأب قد انتقلت بأمانة، من آخر الورثة لتلك التجربة الشوهاء من الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي البائد الى أول المتوّجين ملكاً على مملكة من الوهم والمكابرة في زاوية أسيرة من فلسطين.

* * *

كثيرةٌ هي الدلالات والمعاني التي تشفُّ عنها غلائل الاتفاق / الصفقة. إنّما حسبنا هنا أن نشيرَ إلى بعضها على سبيل المثال ليس غير.

إنّ أول ما يستوقف المرء من أوراق الاتفاق / الصفقة ورقة الاعتراف الفلسطيني بإسرائيل. فهذا الاعتراف يتصدّر قائمة المطالب الإسرائيلية الأساسية. وخطورته ليستْ في كونه شهادةً صريحة من صاحب الحقّ بالتنازل عن حقّه الشرعي فحسب، بل في كونه أيضاً شهادةَ اعتراف منه ببطلان حكمِ الاغتصاب على المغتصب وبصوابِ ادِّعائه بالحق التاريخي في ما يغتصب من أرض فلسطين.

لقد جاء في الميثاق الوطني الفلسطيني أنّ الادِّعاء الصهيوني بحق تاريخي في أرض فلسطين لا يتوافق مع الحقائق التاريخية، وأنّ الصهيونية حركة عنصريّة عدوانية واستعمارية مرتبطة في الأصل بالإمبريالية العالمية.

هذه الحقائق الموضوعيّة لم يبقَ لها أثرٌ في الصيغة المُنقّحة من الميثاق؛ فقدتولّت منظمة التحرير الفلسطينية مهمّةَ التبرّؤ من هذه الحقائق وتطهير «الميثاق» من رِجْسها تحضيراً للمشهد العلني، وتمهيداً لعقد الصفقة.

وانطلاقاً من هذا العقد «الفريد» أمسكت إسرائيل بالمفتاح السرّي، فأمسكت بالقدرة الخارقة على فتح الأبواب العربية جميعها دون استثناء.

فمن الباب الفلسطيني، وحده ليس غير، يستطيع العدوُّ الإسرائيليُّ أن ينطلق بطمأنينة الواثق إلى بقية الأبواب العربية، فتُشرّع في وجهه لكأنّها على انتظار.

تقوم هذه الحقيقة على تاريخٍ طويلٍ من التنظير والممارسة على مستوى العالم العربي بأسره. فلقد أجمعت الأنظمةُ العربيةُ المختلفةُ، كما أجمعتْ فصائل حركة التحرّر العربي، على أنّ القضية الفلسطينية هي جوهر الصراع بين العرب كافة وإسرائيل والصهيونية، وهي المرجعيّة عند اشتباك الآراء والاجتهادات، وهي العنوان المضيء لمشروع المستقبل

---

* شاعر وقصّاص، عضو البرلمان اللبناني، وأمين عام المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.

للجماهير العربية في التحرّر والتقدّم والديمقراطية والوحدة.

من هنا يصحّ القولُ إنّ من المتعذّر على إسرائيل اختراق الجدار العربي إلا عبر الثغرة الفلسطينية. وإلى هذا الهدف الأساس انطلق العدوّ بكلّ طاقاته الذاتية وبكل قدرات ملفائه الغربيين وعلى رأسهم جميعاً الولايات المتحدة الأميركية. وها هو اليوم يصيب هدفه في الصميم من خلال: «غزّة – أريحا» ثمّ يمضي قُدماً نحو عواصم عربية تتسارع إلى الترحيب به لكأنّها على انتظار لقدومٍ طال أمدُه.

ما كان لاتفاقات «كمب دايفيد» هذه القدرةُ السحريةُ سواء على إسقاط الأسوار أو إسقاط الأقنعة، وما كان لغير الاتفاق الإسرائيلي – الفلسطيني أن يصنع هذا المصير الكسيح، الذليل.

ولكنْ، برغم ذلك، فمن الوهم أو الجهل أو منهما معاً الادّعاء بأنّ تاريخ الصراع الدامي قد توقّف في محطته الأخيرة، وأنّ أنهار الدماء الذكية قد تحوّلت بسحرِ ساحرٍ إلى حدائق مودّة وفضاءات صفاء. لا، تقول حقائق الاشياء وتشهد حركة التاريخ... فالصراع باقٍ لاريب في ذلك، فهو يستعصي على محاولات القتل اغتيالاً أو احتيالا، إنّما شأنه أن ينتقل من مرحلة شاخت وتساقطتْ إلى مرحلة وليدة تستدعي، لمسارها الجديد، قوى اجتماعيةً وسياسيةً جديدةً، تستدعي وعياً جديداً ومؤسسات وبرامج وأشكال عملٍ وقيادةً جديدة.

تلك أمثولةُ التاريخ، فلنُعْطها البصر والبصيرة: الشعوب تصنع أقدارها ليس غير. ولنغلق السمعَ، في زمن التراجع والرّدّة، عن دعاة الاستسلام، مجمّلي وجوه الهزائم ومُروّجي عملتها المزورة.

ليس في الأوجاع البشرية أقسى من الوجع الذي نُكابده حيال هذا المشهد الاستفزازي في شخوصه ونصوصه وتحوّلاته والأبعاد. ولكنّه الوجع الشاهد على نهاية فصل من فصول الصراع وبداية آخر، وهو الوجع الدّاعي إلى تحدّيين توأمين: تحدّي الواقع العربي، في لحظة اهترائه القصوى، باجتراح عملية تغييره؛ وتحدّي القرار الأميركي – الصهيوني، في ذروة غطرسته، برفع قرار المواجهة الشاملة والاصطفاف خلفه إنهاءً للاحتلال الإسرائيلي وإحباطاً لمؤامرة التطبيع وانتصاراً للحريّة وكرامة الانسان.

حصان طروادة الجديد ودور الخلايا الحيّة

احمد سويد*

في عام ١٩٤٨ تمخّضت الهزيمةُ العربية المخجلة عن الولادة القانونية لدولة إسرائيل. ولكنّ الوليد الذي أنتجتْه حرب التأسيس، من منظور صهيوني، ظلّ محاصَراً بالرفض وخطر الاختناق، على الرغم من الحروب التي افتعلها بعد ذلك لفكّ هذا الحصار.

ويومَ أقدم السادات، بدمٍ بارد، على اقتراف جريمته، توهّمَ الكيانُ العدوّ أنّ سقوط مصر قد أتاح لحلمه التاريخي الفرصةَ لاختراق تلك الأسوار التي اعتبرها «الفرعون الصغير» مجرّدَ حواجز نفسية سوف يؤدّي اختراقُها إلى دخول إسرائيل في النسيج العربي، وإلى وضع خاتمة سعيدة ونهائية لحروب الضغينة.

ولكنّ الحلم الصهيوني الذي أنعشهُ وهيّج شهيّتَه استسلامُ مصر السادات – مصر الطفيليّين المتسلّلين الّذين تسلّقوا ساقَها وهم يعرفون أنّهم لا يمثّلون روحَها ولا يجسّدون إرادتها – سرعان ما فوجئ بمجابهة بمنتهى الضراوة تُواجهه بها مصرُ الشعب، مصرُ العصيّة التي يثبتُ تاريخُها الطويل أنّها امْنَعُ منْ أنْ تُخْترق.

لا بدّ إذن من حصان طروادي جديد يمتطيه الحلمُ الصهيونيّ لاقتحامٍ جديد هيّأتْ له «عاصفةُ الصحراء» أفضلَ المناخات المؤاتية، في ظلّ تشظٍّ عربي رهيب، وسيطرةٍ أميركية كاملة على قرار محمياتها العربية.

وتطوّع عرفات لأن يكون هذا الحصان، تخوضُ به إسرائيل وباسم السلام حربَ التمدّد والاحتواء، حربَ النفاذ إلى خزائن الثورة العربية، ولأن يكون – كما يقول وليد الخالدي – جوازَ عبورها إلى المنطقة الخلفية، وصانعَ أعظم انتصاراتها كما يصف الرّوائي الإسرائيليّ «عاموس أوز» اتفاقَ الإذعان الذي هدر نضالاتِ قرن كاملٍ وتضحياتِ أجيالٍ كاملة، وشطب تاريخاً طويلاً من البطولات لقاء زنزانة اسمها «غزّة/أريحا»، وسلطةٍ وهميّة، في

* قصّاص من الجنوب اللبناني، ومحامٍ، ونائب في البرلمان اللبناني، والأمين العام المساعد للشؤون الخارجيّة في اتّحاد الكتّاب اللبنانيين.